شذرات نقدية

فى نص شعرى لكعب بن زهير

(رضى الله عنه)

للأستاذ الدكتور/ **على محمد طلب**

أستاذ الأدب والنقد ووكيل كلية اللغة العربية بأسيوط

التعريف بالشاعر وشعره :[1]

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبى سلمى، أبوه زهير من فحول الشعر فى الجاهلية، وهو من قبيلة مزينة، وقد تلقن الشعر عن أبيه زهير صاحب المعلقة والحوليات التى عرف بها، ونشأ كأبيه نشأة أدبية فى بيئة معروفة بقول الشعر، فشب منذ حداثته فصيح اللسان واضح البيان، وقد تلقن الشعر عن أبيه مثله فى ذلك مثل أخيه بجير ومثل الحطيئة، وكان يحفظهم زهير شعره وشعر غيره من الشعراء الجاهليين حتى تنضج موهبة الشعر فيهم .

ومعروف أن كعبا وبجيرا والحطيئة أدركوا الاسلام فكانوا من المخضرمين، وكان أسبقهم إلى الدخول فى الاسلام بجير وشهد فتح مكة، وقد تعرض بجير لهجاء أخيه كعب حيث يقول فى هجائه :

ألا أبلغا عنى بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

شربت مع المأمون كأسا روية ... فانهلك المأمون منها وعلكا[2]

على مذهب لم تلف أما ولا أبا ... عليه ولم تدرك عليه أخالكا

---

(١) أنظر ترجمة كعب بن زهير فى الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١٤١/١٥ ، وتاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزياد ص ١٤٦ ، وروائع الأدب للدكتور محمد نبيه حجاب ص١٦ ط دار المعارف، والعصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ص٨٣ وما بعدها، والشعر والشعراء لابن قتيبه ١٥٤/١، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ٩٩/١ وما بعدها وغير ذلك من الكتب .

(٢) المأمون : الرسول الكريم، وقيل أراد به أبا بكر . النهل: الشرب الأول والعلل: الشرب الثانى .

ويقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع بهذا الشعر فتوعده وأهدر دمه، وما زال كعب بن زهير على وثنيته حتى فُتحت مكة، فكتب إليه بجير أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل كل من آذاه من شعراء المشركين، إلا من أعلنوا إسلامهم ودعاه أن يقدم على رسول الله تائباً، وهناك لم يجد بداً من الالتجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتوسل إليه بحلمه وكرمه وعفوه .

وقدم على الرسول الكريم ومدحه بقصيدته اللامية وأعلن إسلامه وكساه الرسول الكريم بردته الشريفة، وقد اكتسى بها كعب بن زهير حلة مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته بالبردة، وحسن إسلام كعب، وأخذ يصدر فى شعره عن مواعظ وحكم يستقى من منابع القرآن الكريم، وكان شعره ينم عن ولائه لدينه الحنيف وأنه أسلم وجهه لربه جل جلاله، ولعل ذلك ما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الاسلام فى نفسه وفى شعره [١] .

ومن المعانى الإسلامية ذات الصبغة الواضحة فى شعره قوله :[٢]

فأقسمت بالرحمن لا شئ غيره ... يمين امرئ بر ولا أتحلل

لاستشعرن أعلى دريس مسلما ... لوجه الذى يحيى الأنام ويقتل[٣]

هو الحافظ الوسنان بالليل ميتا ... على أنه حىّ من النوم مثقل

من الأسود السارى وإن كان ثائرا ... على حد نابيه السمام المثمل[٤]

---

(١) انظر: العصر الإسلامى للدكتور / شوقى ضيف ص٨٧ وما بعدها ط دار المعارف بالقاهرة .

(٢) شرح ديوان كعب بن زهير ص٥٦ وما بعدها ط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٠ .

(٣) دريس: مثنى دريس وهو الثوب الخلق، يريد لألبسن ثوبى على الإسلام .

(٤) الأسود: الحية . ثائرا: طالب ثأر ، يريد وهو هنا غير طالب ثأر بل ظالم لا يبالى من أصاب .

فكعب بن زهير يقسم بالرحمن قسما لا حنث فيه، لألبسن ثوبى على الإسلام، مسلما لله تعالى الذى يحيى ويميت، وهو معنى قرآنى، والله هو الحافظ لكل نائم بالليل من الحية الرقطاء وهى غير طالبة للثأر، بل ظالمة لا تبالى من أصاب وهو من المعانى القرآنية حيث يقول عز من قائل:﴿ وهو الذى يحفظكم بالليل ﴾.

وظل كعب يتبع منهج أبيه زهير فى قرض الشعر، فكان ينقح شعره ويجوده، ويمتاز شعر كعب بالسلاسة والعذوبة ومتانة النسج وشدة الأسر وجودة السبك، ومما يدل على مكانة كعب الشعرية وقيمة شعره أن جرول بن أوس العبسى المعروف بالحطيئة، وهو من نابهى الشعراء توسل إليه أن ينوه بذكره فى شعره حتى يشتهر فقال :

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ... إذا ما مضى كعب وفوز جرول[1]

كفيتك لا تلقى من الناس واحدا ... تنخل منها مثل ما تتنخل

وتوفى كعب بن زهير سنة ٢٤ هـ .

جو النص (المناسبة التى قيل فيها هذا النص) :

يذكر ابن قتيبة السبب الذى من أجله قيلت هذه القصيدة، فبعد أن أهدر النبى ﷺ دم كعب لما أتهم النبى الكريم بالاختلاق فى دعوته، وكان ذلك أمرا خارت له قوة كعب واضطرب له قلبه، فلما ضاقت عليه الأرض بما رحبت لم يجد بدا من الالتجاء إلى رسول الله ﷺ والتوسل

---

(١) جرول: اسم الحطيئة .

اليه بحلمه وكرمه وعفوه، ويشير ابن قتيبة إلى ما حدث بعد أن قدم كعب على الرسول الكريم، ويذكر أنه قد بدأ بأبى بكر الصديق رضى الله عنه، فلما سلم النبى ﷺ من صلاة الصبح جاء اليه وهو متلثم بعمامته، فقال له: يا رسول الله هذا رجل جاء يبايعك على الاسلام، وعندئذ بسط النبى الكريم يده، فحسر كعب عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير، فتجهمته الأنصار وغلظت له لذكره النبى صلى الله عليه وسلم قبل ذلك، وأحب المهاجرون أن يسلم، فأمنه النبى الكريم، ثم أنشد هذه القصيدة التى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يجز مكبول

وفيها مدح النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة الأجلاء، فكساه المصطفى الكريم البردة الشريفة التى اشتراها معاوية بن أبى سفيان بعد ذلك بعشرين ألف درهم وهى التى يلبسها الخلفاء فى العيدين[1] .

النص :

يقول كعب بن زهير يستعطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمدحه :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلت إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذى شيم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

---

(١) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٤/١ وما بعدها ط دار المعارف القاهرة ١٩٨٢ .

أكرم بها خلة لو أنها صدقت ... موعودها أو لو أن النصح مقبول
فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالعهد الذى زعمت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأماني والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل
أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل
أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل

إلى أن يذكر الوشاة وموقفهم منه فيقول :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم ... إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلو سبيلى لا أبالكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

ثم يخاطب النبى ﷺ مستعطفا إياه فيقول :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة ... (م) القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت فى الأقاويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول - بإذن الله - تنويل
حتى وضعت يمينى لا أنازعه ... فى كف ذى نقمات قيله القيل
لذلك أهيب عندى إذ أكلمه ... وقيل: إنك منسوب ومسئول

ثم ينبرى فيمدح الرسول الكريم والصحابة الأجلاء فيقول :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا : زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود فى الهيجاء سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجدول
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل
لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... ومالهم عن حياض الموت تهليل[1]

شرح المفردات :

(١) بانت:فارقت من البين وهو البعد والفراق. سعاد: مجرد اسم كنى به الشاعر عن محبوبته تسترا . متبول: اسقمه الحب والعشق من التبل وهو الهيام حتى الضعف. المتيم: المستعبد الذليل من تيمه الحب استعبده وأزله. مكبول: مقيد من كبله: إذا قيده بالكبل وهو القيد الضخم .

(٢) غداة البين: ساعة الفراق المبكرة، والغداة: أول النهار من طلوع الفجر إلى مطلع الشمس. الأغن: الذى فى صوته غنة أى نبرة محبوبة. غضيض الطرف: فاتر اللحظ وهى سمة من سمات الجمال .

---

(١) ديوان كعب بن زهير السكرى ص٦ وما بعدها ط دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٠، وجمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص٣٠٨ وما بعدها ط المطبعة الرحمانية ١٩٣٦ .

(٣) هيفاء: ضامرة البطن دقيقة الخصر. عجزاء: كبيرة العجز وهو الردف، وإنما وصفها فى حالتى الإقبال والإدبار ليشير إلى أن لها فى كل موضع من أوضاعها حسن وجمال وفتنة . لا يشتكى قصر ولا طول: كناية يستفاد منها أنها ربعة فهذا يلزم أنها ليست معيبة بطول ولا قصر .

(٤) تجلو: تكشف. العوارض: الأسنان. وذى ظلم بفتح الظاء: ماء الأسنان وبريقها. المنهل: اسم مفعول من أنهله: إذا سقاه النهل وهو الشرب الأول. معلول: اسم مفعول من عله يعله: إذا سقاه العلل وهو الشرب الثانى، والقصد من الجمع بين وصفى النهل والعلل إفادة تشبع الثغر بالخمر. والراح: الخمر .

(٥) شجت: مزجت بما يكسر حدتها. الشيم بفتحتين: البرد، وصاحب الشيم: هو الماء الذى شجت به الخمر . محنية : منعطف، ووصف الماء بأنه مأخوذ من منعطف الوادى فيه دلالة على أنه صاف رائق نقى. الأبطح: السيل الواسع فيه دقاق الحصى. أضحى: لبث وقت الضحى ويفيد أنه لم تدركه حرارة الشمس المرتفعة. مشمول: مضروب بريح الشمال، واختار هذه الريح بصفة خاصة .

(٦) أكرم بها: ما أكرمها فهى صيغة تعجب. خلة بضم الخاء: الصديق يطلق للمذكر والمؤنث والمراد: الخليلة. الموعود: الوعد .

(٧) الغول: كل ما يغتال الانسان ويهلكه، والمراد هنا السعلاة وهى الأنثى من الشياطين، وهى من خرافات العرب التى تزعم أنها تتراءى لهم فى الفلوات، وتغير مظاهرها واشكالها وتتلون بألوان شتى فتضلهم

عن الطريق السوى، وقد أبطل الاسلام هذا الزعم فيما أبطل من خرافات الجاهلية، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا طيرة ولانوء ولا غول) [١] .

(٨) تمسك أصلها تتمسك: يقال مسك الشئ وأمسكه ومسكه (مضعف السين) وتمسك به كلها بمعنى العهد، زعمت: ضمنت وكفلت من الزعم والزعامة بمعنى الضمان والكفالة، وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وأنا به زعيم ﴾ ، والتشبيه فى عجز البيت يفيد مدى الدرجة التى بلغتها سعاد فى خلف الوعد ونكث العهد، ويوحى بمقدار خيبة الأمل التى يلقاها فى حبها، وأنه نفض يديه من وصالها وقربها .

(٩) لا يغرنك: لا يخدعنك. منت: حذف مفعولاه للعلم بهما يقال: مناه كذا إذا أطمعه فى تمنيه، أو معنى منت: وعدت بالأمنية وهى ما يتمنى ويشتهى. الأمانى: بتشديد الياء: جمع أمنية، الأحلام: جمع حلم بضم حائه ولامه وهو ما يعرض للنائم من رؤى وخيالات تذهب بذهاب النوم. تضليل: تضيع وإبطال ومنه قوله تعالى فى أصحاب الفيل: ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ [٢] .

(١٠) عرقوب: هو عرقوب بن نصير من العمالقة نزل (بيثرب) قبل أن ينزل بها اليهود، ضرب به المثل فى خلف الوعد، ويذكرون فى خلفه

---

(١) انظر: مختارات من الأدب للدكتور/ عبد المقصود السعداوى ص٢١٧ وما بعدها ط دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) سورة الفيل / الآية ٢ .

للوعد: أن عرقوب هذا وعد أخاه ثمر نخلة فقال له: ائتنى إذا أطلع النخل، فلما أطلع النخل أرجاه إلى أن يبلح، ثم إلى أن يزهى ثم إلى أن يرطب ثم إلى أن يتمر، فلما صار البلح تمرا جزّه بالليل ولم يعط أخاه شيئا منه، فجاء الرجل بعد أيام فلم يجد الا عودا قائما، فذهب موعود عرقوب مثلا، ولذلك يقول القائل:

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيثرب[1]

الأباطيل : جمع غير قياسى لباطل .

(١١) تنويل: مصدر نوله بمعنى أعطاه نوالا، أى عطاء، والمقصود ليس العطاء المادى ولكن العطاء المعنوى المناسب للحب من الوصال ونحو ذلك .

(١٢) أمست: صارت أو دخلت فى المساء. لا يبلغها: لا يوصل اليها . العتاق: النوق الكرام الأصول. النجيبات: الخفيفات القويات أو النفيسات، المراسيل: جمع مرسال وهى الناقة السريعة .

(١٣) تسعى: من السعاية بمعنى الوشاية وهى المشى بين الناس بالوقيعة والافساد. الوشاة: جمع واش وهو الذى يزين الكذب ويزخرف كلامه بالزور كالثوب الموشى أو المزخرف المنقوش. جنابيها: جنابى سعاد فالضمير يعود على سعاد، ويروى حواليها والمعنىواحد. ابن ابى سلمى: المراد به كعب بن زهير نسب نفسه إلى جده على عادة العرب، ومنه

---

(١) تراثنا الأدبى للدكتورين ابراهيم أبى الخشب ومحمد عبدالمنعم خفاجى ص١٠١ دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

قوله عليه الصلاة والسلام: (أنا ابن عبدالمطلب) مقتول: أى صائر إلى القتل لا محالة أو مهدد به .

(١٤) الإلهاء : الشغل والتعطيل، ومعنى لا ألهينك إنى عنك مشغول: لا أشغلك عما أنت فيه من الفزع والخوف فأنا مشغول عنك بأمور نفسى، والمقصود من العبارة: صرفه عن التعلق بمعونة كل صاحب كان يؤمل كعب فى حمايته .

(١٥) خلوا سبيلى: اتركوا طريقى وتنحوا عنه. لا أبالكم: تعبير كنائى يفيد المدح أو الذم، فهو فى مقام المديح أن المخاطب لا نظير له إذ لو كان له أب لكان له أخ يماثله، وفى مقام الذم على معنى نفى نسبه فهو خسيس دنئ، ومعنى الذم هو المتبادر هنا . فكل ما قدر الرحمن مفعول: استسلام للمقادير يلجأ له الإنسان عندما لا يجد مخرجا من شدته، ويكون فيه العزاء والسلوى .

(١٦) كل ابن انثى: المراد كل مولود. الآلة: المراد بها النعش. الحدباء: المرتفعة ومنه إطلاق الحدب على ما ارتفع من الأرض، وربما كان قصده من وصف النعش بالارتفاع أنه ظاهر للعيان يراه المشيعون للميت إلى مثواه الأخير، قيل معنى حدباء: معوجة .

(١٧) أنبئت وفى رواية نبئت وكلاهما بمعنى أخبرت أو أعلمت. أوعدنى: هددنى وأهدر دمى من الوعيد، ولا يكون إلا فى الشر بخلاف الوعد .

وكرر ذكر "رسول الله" لافادة التعظيم والتفخيم، ولما فيه من تكرار اعترافه بالرسالة، وكلاهما يؤكد الهدف من القصيدة التى ينشدها بين

يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو طلب العفو، فهو بهذا البيت وما تلاه يتناول غرضه الرئيس وهو الاستعطاف والاعتذار .

(١٨) مهلا: أناة ورفقا. هداك الله جملة خبرية قصد بها الدعاء للرسول أن يزيده الله هدى وتوفيقا. نافلة القرآن: عطية القرآن، والنافلة فى الأصل: الزيادة فى فعل الخير وإضافتها إلى القرآن بيانية، فالمقصود نافلة القرآن. مواعيظ: جمع موعظة وهى القول الموجه إلى السلوك القويم. تفصيل: تبين وتوضيح .

(١٩) لا تأخذنى بأقوال الوشاة: لا تعاقبنى بها ولا تحاسبنى عليها. الأقاويل: جمع أقوال وهى جمع قول والمراد بها الأكاذيب والإدعاءات .

(٢٠) لقد : جواب قسم محذوف أى والله لقد أقوم. مقاما ظرف مكان والمراد مقامه بين يدى النبى ﷺ ، وفى البيت حذف وتقديره بعد ذكر المحذوف: والله لقد أقوم فى مقام بين يدى رسول الله لو يقوم به الفيل أرى ما لو يراه الفيل وأسمع ما لو يسمعه الفيل - لظل يرعد مع شجاعته، فجواب لو فى البيت بعده، وفيه تصوير للموقف العصيب المهيب، وهو كناية عن هول الموقف وهيبة من يقف بين يدى الرسول الكريم فى النفوس، وإنما خص الفيل بذلك لأنه أراد التهويل والتعظيم، والفيل أعظم الحيوانات جثة وشأنا[1] وشجاعة واحتمالا .

---

(١) انظر: النصوص الأدبية والبلاغة للدكتور يوسف البيومى وآخرين ص٤٨ وما بعدها ط زهران القاهرة ١٩٧٢ .

(٢١) يُرعد:مبنى للمفعول: تأخذه الرعدة وهى الاضطراب من الفزع والخوف. والتنويل: مصدر نوّله بمعنى أعطاه نوالا، والنوال الذى يقصده هنا: هو تأمينه بقبول عذره والعفو عنه .

(٢٢) حتى وضعت يمينى: كناية عن أخذ العهد بالأمان. نقمات: جمع نقمة المراد به رسول الله ﷺ . قيله القيل: قوله الصادق النافذ المعتد به.

(٢٣) لذلك أهيب: ويروى أرهب: وصفان للتفضيل من الهيبة والرهبة وفى كل منهما معنى الخوف. منسوب ومسئول: منسوب إلى أمور اتهمت بها، ومسئول عنها محاسب عليها .

(٢٤) إن الرسول لنور: تشبيه الرسول بالنور (تشبيه بليغ) اقتصر فيه على المشبه "الرسول" والمشبه به "نور" . مهند : منسوب إلى الهند، وفيه تشبيه بليغ مثل سابقه، والتشبيه الأول يناسب مهمة الرسول الكريم الأولى فى الرسالة وهى الهداية، ولذلك شبهه الله بالسراج المنير، فى قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (١) .

سيوف الله : حماة دينه وأنصاره. مسلول: أى مجرد من غمده .

(٢٥) فتية : جمع فتى وهو السخى الكريم ذو المروءة وكمال الرجولية وإن كان شيخا. من قريش: وخص قريشا لأن أغلب المهاجرين كانوا منها. ويروى "فى عصبة" وهى الجماعة من الناس بين العشرة والأربعين.

---

(١) سورة الأحزاب / الآيتان ٤٥-٤٦ .

قائلهم: المراد به عمر بن الخطاب وقيل: إنه حمزة بن عبد المطلب، فعمر أو حمزة صاحب فكرة الهجرة أو المشير بها، والذى قال لهم هاجروا هو النبى ﷺ . زولوا: تحولوا وانتقلوا .

(٢٦) أنكاس: جمع نكس: ساقطو القدر والمنزلة . كشف: جمع أكشف وهو من لا ترس معه فى الحرب، ميل: جمع أميل وهو من لا سلاح معه أو من لا يحسن ركوب الخيل ولا يستقر على السرج . المعازيل: جمع معزال وهو الضعيف الأحمق .

(٢٧) شم العرانين: جمع أشم أى مرتفع وعال. والعرانين جمع عرنين وهو أرنبة الأنف، وشم العرانين كناية عن العزة والأنفة والترفع عن الدنايا .

من نسج داود: الدروع التى علمه الله نسجها وصنعها، وبذلك امتن الله سبحان وتعالى على بنى اسرائيل فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[1] ، ويقول المولى عز وجل: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]. الهيجاء: الحرب . سرابيل : جمع سربال وهو الدرع أو القميص .

(٢٨) بيض: جمع بيضاء صفة لسرابيل: مجلوة وصافية مصقولة كناية عن إدامتهم للحرب وشجاعتهم. سوابغ صفة أخرى لسرابيل: سوابل

---

(١) سورة الأنبياء / الآية ٨٠ .

(٢) سورة سبأ / الآيتان ١٠-١١ .

ضافيات. شكت: أدخل بعضها في بعض، والمراد إدخال بعض الحلق في بعض. كأنها حلق القفعاء: القفعاء شجر ينبسط على وجه الأرض في حلقات متجاورة كحلقات الدروع. مجدول : محكم الصنع .

(٢٩) الزهر: البيض واحده أزهر. يعصمهم: يمنعهم: ضرب: محكم مسدد .

عرد : فرّ وهرب وأعرض. السود جمع أسود يقصد بذلك (عاصم بن قتادة) وأضرابه الذين هموا بقتله لولا أن نهاهم الرسولﷺ . التنابيل: جمع تنبال وهو القصيدة .

(٣٠) إذا نالت رماحهم: كناية عن الظفر بالعدو. المجازيع: جمع مجزاع وهو الشديد الجزع، وهي صيغة مبالغة لأن المهزوم لا يخلو من جزع وإلا كان جماداً .

(٣١) لا يقع الطعن إلا في نحورهم: كناية عن إقدامهم وبسالتهم وشجاعتهم فإن الجبان يفر فيقع الطعن في ظهره . حياض الموت: الحياض جمع حوض وهو في الأصل ما يجمع فيه الماء للسقيا، واضافته للموت تخييل. التهليل مصدر هلل عن الشئ إذا تأخر عنه ونكص، ونفى نكوصهم عن المعركة كناية عن قوة بأسهم ورباطة جأشهم .[1]

الأفكار التي يدور حولها النص :

(١) البين والفراق وتذكر جمال الحبيبة .

(٢) رواسب الذكريات الأليمة في وجدان الشاعر .

---

(١) انظر: مختارات من الأدب ص٢٥٢ وما بعدها .

(٣) أقوال الوشاة وموقفهم منه .

(٤) إشفاق من الوعيد وأمل فى العفو من الرسول الكريم .

(٥) مدح الرسول الكريم والثناء عليه .

(٦) تسجيل لأمجاد الصحابة الأجلاء فى نصرة الدين الحنيف .

المعنى العام :

فى المقطع الأول من النص والذى يدور حول سعاد (١-١٢) يتحدث عن فراق سعاد، وما لهذا الفراق من آثار لا يمحوها الزمان، ولا يمكن أن تكون فى طى النسيان، ثم تحدث عن مظاهر جمال الحبيبة، فوصف صوتها وعينيها وثغرها وريقها، ووصفها بالهيف ، انها ضامرة البطن دقيقة الخصر، ثم كان الحديث عن ذكريات مؤلمة على النفس والوجدان حيث يقول: ليس دأبها البقاء على حال الوفاء فتسعد من يحب أو حال الهجر فتيئس الذى أحبها، ولكنها حال متغيرة بين الوصل والهجر، ومثل ذلك فى تلونها كالغول الذى يتشكل ليضل الناس، وقد كشف الشاعر عن خرافة كانت شائعة، بين العرب عن طريق هذا التشبيه .

ثم يشبهها فى عدم تمسكها بشئ من الوعد بالغرابيل التى لا تمسك شيئا من الماء إذا وضع فيها، ثم يشبه مواعيدها بمواعيد عرقوب ذلك الرجل من العماليق وكان يسكن يثرب قبل أن يسكنها اليهود وقد ضرب به المثل فى خلف الوعد، وكل هذه التشبيهات تبين الدرجة التى بلغتها سعاد فى نكث العهود وخلف الوعود .

ونهى نفسه عن الإغترار بالوعد والأمانى التى ظنها تتحقق، ثم ذيل كلامه بما يؤكد المعنى بقوله: إن الأمانى والأحلام خداع وضلال، ولذلك فقد أمست سعاد فى مكان ناء بعيد لا يصل اليه إلا كرام الإبل السريعة وأنى له ذلك !! وهكذا قطع الأمل فى لقائها ووصالها، فقد ارتحلت إلى مكان بعيد ليس من السهل الوصول إليه .

وفى المقطع الثانى (١٣-١٦) ينتقل الشاعر إلى الوشاة الذين يسعون إلى سعاد بوعيد الرسول الكريم إياه حينما أهدر دمه لأنه هجا النبى ﷺ وقال باختلاق القرآن الكريم، وذكر تخلى الأصدقاء والأخلاء، فقد عرض نفسه على بعض القبائل لتحميه فأبت خوفا على نفسها، وأدرك أنه مقتول لا محالة، وأخيرا استسلم لقضاء الله وقدره، ولجأ إلى النبى ﷺ ولسانه ينطق بالحق ويقول: كل ما قدر الرحمن مفعول، وأصدرها حكمة مؤداها أن كل مولود لابد له مهما طال به العمر من أن ينتهى أجله ويموت، ولابد أن يحمل إلى قبره على آلة معوجة هى النعش إلى مثواه الأخير .

وفى المقطع الثالث (١٧-٢٣) يدخل إلى غرضه الأصيل وهو الاستعطاف والاعتذار وطلب العفو، وقد بدأ الشاعر بالاتجاه إلى الموضوع إتجاها مباشرا فعرض محنته أو قضيته وهى ما بلغه من توعد النبى الكريم بالقتل وإهدار دمه، ثم لوح بمطلبه وهو العفو المأمول عند الرسول ﷺ، ثم شرع فى الدفاع عن نفسه بأن التمس من النبى الكريم أن يترفق به ويتأنى فى أمره ودعا له بالهدى والرشاد، وذكره بنعمة القرآن وما فيه من عظات بالغات وتعاليم سامية، ثم أخذ يتنصل مما أتهم

به وادعى أنها وشاية، وناشد الرسول الكريم أن لا يعاقبه بأقوال الوشاة، ثم عقب على ذلك بوصف موقفه الرهيب بين يدى رسول الله ﷺ، فذكر أنه يقاسى فى هذا الموقف من الرهبة والخوف ما يرعد أشد الحيوانات تجلدا وشجاعة واحتمالا وهو الفيل، وأنه لن ينجو من فزعه ورعبه وخوفه الا بأن يتأكد من عهد الأمان[1]. بوضع يد المسالمة فى يد الرسول ﷺ صاحب الانتقامات الباطشة وصاحب القول المسموع والكلمة النافذة.

وفى المقطع الرابع (٢٤-٣١) ينبرى الشاعر فيمدح النبى ﷺ ببيت واحد فيه جلال النبوة وإشراقاتها، وفيه معنى المتعة والقوة فيصفه بأنه النور الذى يهتدى به الناس فى ظلمات الحياة، وأنه سيف سله الله على المشركين ليقضى على باطلهم وشركهم، ثم يمدح الصحابة الأجلاء ويسجل جهادهم وأمجادهم فى سبيل نصرة الدين الإسلامى، فحين ناوأت قريش الدعوة الإسلامية فى مكة، فقال عمر بن الخطاب أو حمزة بن عبد المطلب بعد أن أسلم من أسلم: انتقلوا وهاجرا من مكة إلى المدينة، حيث ظلت قريش على عدائها للدعوة الإسلامية، وقد هاجروا إلى المدينة، ولكن لم تكن هجرتهم عن ضعف، ولم يكونوا فى المعارك التى خاضوها بعد الهجرة، إلا حماة للدين الحنيف، فلم يكونوا خالين من السلاح ولا ممن لا يحسنون ركوب الخيل، ولا ممن لا سيوف معهم ولا أسلحة، وكانوا أعزاء كرماء يمتازون بشجاعة نادرة وبسالة عظيمة،

---

(١) انظر: مختارات من الأدب ص٢٦١.

وهم أبطال أقوياء يتخذون للحرب عدتها ويلبسون للهيجاء دروعا متينة كالتى صنعها داود عليه السلام، وهم إذا مشوا إلى أعدائهم خلتهم الجمال البيض، وهم قوم على خلق كريم وهمة عالية، فلا يهللون للنصر إذا حققوه لأنهم اعتادوا عليه، ولا يفزعون للهزيمة إذا لحقتهم لوثوقهم فى قضاء الله وقدره، ثم مدحهم الشاعر بالإقبال والإقدام والثبات فى الحروب فهم يتلقون الطعن فى النحور والصدور لا فى الأعجاز والظهور، وليس لهم حين تشتد المعركة ويدور رحاها جبن أو فرار عنها، بل هم يردون حياض الموت فى صبر وإيمان وقوة تحمل ويقين بأنهم فائزون بإحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة .

دراسة وتحليل ونقد :

١- لقد أثرت البيئة الشعرية التى عاشها كعب بن زهير فيه وفى شعره، فجميع الرواة يتفقون على أن الشعر لم يتصل فى ولد أحد من فحول الشعراء فى الجاهلية إتصاله فى ولد زهير، وفى الإسلام فى ولد جرير، فكعب بن زهير وأبوه زهير وجده أبو سلمى وعمتاه الخنساء وسلمى، وخال أبيه بشامة بن الغدير، كما أن أخاه بجير بن زهير، وولده عقبة بن كعب المعروف بالمضرب وحفيده العوام بن عقبة كلهم شعراء مجيدون[1] .

ويذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (الأغانى) أن سلمى بنت كعب بن زهير كان لها أولاد كثيرون منهم شاعران يسميان (العوثبان

---

(١) انظر:الشعر الجاهلى للدكتور/محمد أبى الأنوار ص٢١٩ ط قاصد خير نشر مكتبة الشباب بالقاهرة.

وقريض)، وسلمى هذه هى جدة الشاعر المعروف (ابن ميادة) ، وقد قال ابن ميادة الشعر عن أعمامه من قبل جدهم زهير بن أبى سلمى[1] .

وهكذا عاش شاعرنا فى بيئة شاعرة تترنم بقول الشعر، وتشدو به فى العالمين شعرا خالد إلى يوم يبعثون .

٢- هذه المقدمة التى ذكرها كعب بن زهير فى وداع محبوبته، تعد فى نظر بعض الأدباء رمزا استخدمه الشاعر ليعبر عن خوفه ورهبته، وهو يقف بين يدى الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، فسعاد هذه هى الأمن الذى فارقه إثر إهدار النبى ﷺ دمه، والذى بحث الشاعر عنه فى كل مكان، وقد طلبه من القبائل والأصدقاء فلم يجده عندهم، إذن رحلت سعاد أو فارقه أمنه إلى مكان مجهول، وضاعت منه، فلا يستطيع الوصول إليها، وهو مع ذلك مفتون بهواها، لم يغادر حبها قلبه، يجرى خلفها لعله يدركها، أو يظفر بها، ثم يتغزل فى سعاد ساعة الوداع والفراق لأنها اللحظة الثابتة المحفورة فى ذاكرته ووجدانه، ولقد سمع صوتها العذب الأغن، ورأى عيونها المكحولة الناعسة، فارتسم ذلك المشهد الأخير فى مخيلته، لأنها الحقيقة الباقية من سعاد، أو الشئ الذى يقنعه بأنه ما زال فى أمان، إذا كانت سعاد هى الأمان الضائع، وبقى له من ملامحها الجسدية ما يعين على تشكيل الصورة كلما حن اليها، فهى ضامرة البطن دقيقة الخصر، مكتنزة الردفين، متوسطة الطول، ثم وصف الشاعر ابتسامها فى لحظة رضاها عليه اثناء استقبالها له مستبشرة فرحة، وهذا زمن يعيش

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢٦٧/٢ ط دار الكتب المصرية بالقاهرة .

فيه الشاعر فى أكناف الأمان، فترتاح أحاسيسه، ويقبل على الحياة بغبطة وتفاؤل، وهذه اللحظات التى كان يعيشها فى ظلال الأمان فقدها، لذلك تطلع الشاعر إلى عودتها من جديد، ومعها من المحبة والود ما يزيل خوفه ويقضى على همومه، ولكن لأن التهديد ماثل أمامه، ولأن الخطر يتربص به فى كل مكان يرتاده، فقد ضاع الأمل عنده وأوشك على التلاشى، فهو لا يظن أن هناك عودة أو منحاً أو عطاء لما كان يأخذه منها، عندما كانت قريبة منه يعيش فى أعطافها[1] وفى رحابها، وبخاصة بعد أن رحلت عنه إلى مكان بعيد.

٣- أما عن التجربة الشعرية التى خاضها الشاعر، فنلاحظ فى هذه القصيدة صدق توبة كعب بن زهير، وحسن أوبته للإسلام، ذلك بما بثه الشاعر فى ثنايا الأبيات من مشاعر إسلامية رفيعة، ولا سيما فى مدح الرسول الكريم والصحابة الأجلاء، واستطاع أن يجمع فى الاعتذار بعض خصائص الرسول الكريم وأبرزها نزول القرآن الذى هو مواعيظ للناس أجمعين، وتفصيل لحياتهم الدنيوية والأخروية وإن الرسول نور يهدى الحيارى فى دروب الحياة وانه سيف سله الله على المشركين، وذلك بعض أخلاق الرسولَ الكريم وصفاته رجاء فى عفوه وكرمه، وأملا فى سماحته ورحمته، ثم بين قوة النبى الأكرم وأن هذه القوة مصدر هيبة واحترام، وكان كعب صادقا فى تجربته الشعرية كل الصدق حيث

---

(١) انظر: فى أدب العصر الجاهلى والعصر الراشد للدكتور/عبداللاه محمود حسن ص١١٨ وما بعدها.

عبر عن مشاعر فياضة بالمعانى الصادقة التى لا ادعاء فيها ولا مغالاة، ولا سيما تصويره لموقفه الرهيب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتصوير رعبه وفزعه وخوفه، فمن المؤكد أن للعاطفة الصادقة دورها الفعال فى جمال التصوير وروعة الأداء والتعبير. والشاعر يحاول جهد طاقته أن يتأثر فى معانيه بالذوق الاسلامى الرفيع، وبما استجد من قيم خلقية كتلك المعانى التى استغلها فى خطاب الرسول الكريم، وفى مديحه ﷺ وصحابته الأجلاء، وبذلك حقق للقصيدة قوة التأثير وحققت هدفها، وكل ذلك بالصدق الفنى والشعورى .

وعلى الجملة: فقد كان الشاعر بارعا وصادقا كل الصدق فى تصوير مشاعره، وخاصة مشاعر الخوف التى استولت عليه فى موقفه الرهيب أمام جلال النبوة، وبهذا استدر عطف الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤- وإذا ما جئنا للنص الذى بين أيدينا، نجد أن التوفيق يصاحب الشاعر فى كل خطواته، وأدركنا أن الشاعر أخذ عن أبيه زهير بن أبى سلمى التنقيح والتهذيب والصقل، فهو يختار من المؤثرات ما يناسب موقفه ويحقق غرضه، ففى وصف موقفه قبل لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ أهم مظاهر الضياع والحيرة التى عاشها، وقد سلط عليها الضوء لتكون أقوى إثارة للمشاعر الإنسانية، ولا سيما عند من وصفه الله تعالى بقوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ .

وهل هناك ما هو للرثاء وأبعث على الرحمة بالإنسان من تخلى أوليائه وأصفيائه والمقربين إليه عنه، وهيامه على وجهه شريدا طريدا،

وتضيق عليه الأرض بما رحبت، وتوقع الهلاك والقتل فى كل لحظة، ولا سيما فى قول كعب :

ما زلت اقتطع البيداء مدرعا جنح الظلام وثوب الليل مسبول[1]

وفى خطاب النبى الكريم يعمد إلى وسيلة ناجحة، حيث يذكره بالقرآن وما فيه من عظات بالغات، وأغلب الظن أنه يلمح إلى ما فيه من حث على العفو وإعراض عن الجاهلين، فالله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2]، وما فى هذا التنزيل الحكيم من توجيه إلى التثبت قبل الأخذ بأقوال الفاسقين حيث يقول المولى عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[3] .

ولذلك ناشد الرسول ﷺ ألا يعاقبه بأقوال الواشين .

وفى المديح الذى ختم به القصيدة لم تفته المهارة، فابتعد فى مدح الرسول الكريم عن المدائح الجاهلية، وانتقى من الأوصاف ما يناسب جلال الرسالة وهدى النبوة، وفى مديح المهاجرين لم ينس أروع ما سجله التاريخ لهم فى نصرة الدين الحنيف، وتضحيتهم بشكل غال وعزيز وبطولتهم وإقدامهم وبسالتهم، إيثاراً لسلامة العقيدة وامتثالا لأمر الرسول ﷺ .[4]

---

(١) لم يرد هذا البيت فى الديوان، وقد ورد بسيرة ابن هشام، ومعنى البيت: ما زلت اجتاز الصحراء لابسا درعا من ظلام الليل، وجنح الظلام المسدول المرخى .

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٩٩ .

(٣) سورة الحجرات / الآية ٦ .

(٤) انظر: من النصوص الأدبية فى الجاهلية والاسلام للدكتور مصطفى يونس ص١٣٧ وما بعدها ، ط الفجر الجديد القاهرة ١٩٨٣ .

٥- أما ألفاظ قصيدة كعب بن زهير "بانت سعاد" ففيها صفاء ونقاء وفيها فحولة وقوة لا نظير لها، ولا يغض من ذلك أنها تعلوا أحيانا كما فى وصف الناقة التى وصفها فى عشرين بيتا، والتى حذفناها من النص المذكور، لأنها تحتاج إلى المعاجم اللغوية فى كشف معانيها، فهذه هى المشكلة فى كثير من تراثنا العربى القديم، وخاصة شعر الأغراض التى باعدت الحضارة الحديثة بيننا وبين تلك الأغراض كوصف الصحارى وأجوائها ومواقعها ومسالكها ونبتها وحيواناتها بما فيها: وصف الناقة والفرس فقد نجد فى تلك الأغراض ألفاظا ترتفع فوق مستوانا اللغوى لأنه لا مجال لها فى أدبنا المعاصر، فيخيل إلينا أنها داخلة فى الوحشى والغريب، ولكن فى الحقيقة أن الغرابة أمر نسبى، فيجب أن ننظر إلى بيئة الشاعر الزمانية والمكانية، فرب كلمة غريبة فى زمان أو مكان وهى شائعة مألوفة فى غيره، وإنما العدل والإنصاف أن نقيس ألفاظ كل شاعر بمقياس عصره .

فإذا احتكمنا إلى هذا المقياس فى ألفاظ كعب بن زهير فى وصف الناقة، وجدناها لا تخرج عن دائرة المعجم اللغوى المألوف لأهل زمانه، ولو قابلناها بألفاظ دريد بن الصمة أو طرفة بن العبد مثلا فى وصف الناقة، لوجدنا كعبا أقرب منها منالا وأيسر فهما [1].

٦- أما من حيث أسلوب القصيدة فقد بلغت غاية الإحكام، ويمتاز أسلوبها بالجزالة والقوة والفحولة وشدة الأسر وقوة السبك، فتعبيراتها

---

(١) انظر : مختارات فى الأدب للدكتور عبد المقصود السعداوى ص٢٦٩ .

قوية من أولها إلى آخرها، ومنها مثلا: "كانت مواعيد عرقوب لها مثلا" ، "كأنه منهل بالراح معلول" ، "لا ألهينك إنى عنك مشغول" ، "والعفو عند رسول الله مأمول" ، "لا تأخذنى بأقوال الوشاة" ، "أرى واسمع ما لو يسمع الفيل" ، "إن الرسول لنور يستضاء به" ، "شم العرانين أبطال لبوسهم" وغيرها من الأساليب القوية المتينة .

وقد تنوعت أساليب النص من خبر إلى إنشاء، فمن الأخبار: "أنبئت أن رسول الله أوعدنى" وهو يفيد إظهار الأسى والحزن والقلق، وقول الشاعر: "إن الرسول لنور يستضاء به" وهو خبر الغرض منه المديح وغير ذلك، ومن الأساليب الإنشائية قوله: "مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القرآن" وهو أمر خرج إلى معنى الرجاء والدعاء، ومنها قوله: "لا تأخذنى بأقوال الوشاة" وذلك أسلوب نهى خرج إلى معنى الرجاء والدعاء والتضرع[1]، وفى قوله "لا يغرنك ما منت" نهى خرج إلى معنى التحذير، وفى قوله "فلو بيلى" أمر خرج إلى الثورة والتذمر والمعنى فى الرأى بما يخالف الآخرين . أما فى قول كعب بن زهير :

أرجوا وآمل أن تدنو مودتها وما إخال لدينا منك تنويل

نجد أنه حول أسلوبه من حديث الغائب فى صدر البيت، إلى حديث المخاطب فى عجزه، وذلك ما يسميه البلاغيون "الالتفات" وسر التحويل هنا: أنه حين قرر تماديه فى الرجاء وعقد الآمال، تذكر فجأة ما يعرف من أمرها من خلف الوعد، فمثلت أمامه فوجه إليها الخطاب،

---

(١) انظر: من النصوص الأدبية فى الجاهلية والاسلام ص١٤٠ .

وعلى الجملة: فإن أسلوب القصيدة أسلوب رصين محكم يملأ النفس ويأخذ بمجامع القلوب .

٧- استخدم الشاعر كثيرا من الصور البيانية الرائعة، وكانت صوره البيانية قوية التعبير والتأثير، وسر قوتها أنه يستمدها من البيئة المحيطة به، وأن يراعى فيها الدقة والإحكام وشدة السبك، حتى تؤدى المعنى كما يحس به، وكما يريد أن ينقله إلى السامع والمتلقى .

واذا ما رحنا نكشف عن الصور البيانية فى النص، وجدنا التشبيه البليغ فى قول الشاعر "إن الرسول نور" ففيه تشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم بالنور بجامع الهداية والإرشاد، وهو تشبيه يناسب مهمة الرسول الكريم الأولى فى الرسالة وهى الهداية، وفى قول الشاعر "إن الرسول لسيف" أيضا تشبيه بليغ اقتصر فيه الشاعر على المشبه "الرسول" والمشبه به "نور" ، "سيف" فى كلا التشبيهين .

وفى قول الشاعر: "كأنه منهل بالراح معلول" شبه الثغر وهو يكشف عن صفاء الأسنان وبريقها ولمعانها ويشيع الارتياح عند رؤيته بالإضافة إلى طيب الريق بأنه مشبع بالخمر، والملاحظ أن طيب الريق من الأمور المستحبة وفى قول الشاعر: "كما تلون فى أثوابها الغول" تشبيه يفيد أنها مثل الغول مع سالك الصحراء حيث تجره بتلونها للدمار والهلاك .

وفى قول الشاعر: "كما يمسك الماء الغرابيل" شبه عدم تمسكها بوعدها الذى تبذله كذبا بالغرابيل لا تمسك شيئا من الماء إذا وضع فيها، والتشبيه يبين الدرجة التى بلغتها سعاد فى نكث العهود وخلف

الوعود، ويوحى فى الوقت نفسه بمقدار خيبة الأمل التى يلقاها فى عشقها، وأنه نفض يديه من وصالها وقربها، وفيه كناية عن خلف الوعد، وفى قول الشاعر: "كانت مواعيد عرقوب لها مثلا" شبه مواعيد سعاد بمواعيد عرقوب الذى ضرب به المثل فى خلف الوعد، ويؤكد الشاعر فى رواية أخرى أن مواعيد عرقوب أكاذيب وأباطيل حيث يقول: "وما مواعيده إلا الأباطيل" فإذا كانت مواعيد عرقوب أباطيل، فما بالنا بمواعيد سعاد ؟

وفى قول الشاعر: "يمشون مشى الجمال الزهر" تشبيه الصحابة الأجلاء فى القوة والهيبة بالجمال البيض فى الشكل والهيئة . أما الكنايات فالشاعر له نصيب موفور منها، والكناية تحمل الشئ ودليله كما يقول البلاغيون، ومنها على سبيل المثال لا الحصر قول الشاعر: "لا يشتكى منها قصر ولا طول" تعبير كنائى يستفاد منها أنها ربعة فلا هى بالطويلة ولا بالقصيرة، ومعنى هذا أنها لا تعاب بطول أو قصر .

وفى قول الشاعر: "لا أبالكم" تعبير كنائى يفيد المدح أو الذم على حسب السياق، فالمدح يراد به نفى نظير الممدوح إذ لو كان له أب لكان له أخ يماثله، ووجه الذم أنه مجهول النسب فهو إذن دنئ خسيس، وهو المراد هنا.

وفى قول الشاعر: "على آلة حدباء محمول" كناية عن النعش الذى يحمل فيه إلى مثواه الأخير .

وفى قول الشاعر: "حتى وضعت يمينى" تعبير كنائى إذ أن وضع اليد كناية عن أخذ العهد بالأمان .

وفى قول الشاعر: "شم العرانين" كناية جميلة عن العزة والمنعة والترفع عن الدنايا .

أما فى قول الشاعر: "إذا نالت رماحهم قوما" فهو كناية عن الظفر بالأعداء، وفى قوله: "لا يفرحون" كناية عن كثرة انتصارهم على الأعداء، وفى قول الشاعر: "وليسو مجازيعا إذا نيلوا" كناية عن ثقتهم بأنفسهم ومعرفتهم أن الحرب سجال .

وفى قول الشاعر: "لا يقع الطعن إلا فى نحورهم" كناية عن ثباتهم وإقدامهم وأنهم لا يستدبرون المعركة بالفرار .

وفى قوله: "وما لهم عن حياض الموت تهليل" نفى نكوصهم عن الدخول فى ميدان المعارك، كناية عن قوة بأسهم ورباطة جأشهم، وفى قوله: "حياض الموت" استعارة، ولها حسنها وجمالها فى الكلام، إذ تبرز الشئ المعنوى فى صورة المحسوس حتى تستقر فى الذهن ويرسخ فى الوجدان .

٨- أما عن موسيقا النص التى تتمثل فى الوزن والقافية، فالقصيدة تسير أبياتها على وزن واحد فقد نظمها الشاعر على وزن "البسيط" وعادة أن بحر البسيط لا يكون إلا فى الأغراض المهمة، وله رنين موسيقى خاص، وتنتهى القافية بحرف واحد هو اللام المضمومة، وذلك ما يسمى بالموسيقا الخارجية، وهذا قدر مشترك فى النصوص العربية القديمة.

والموسيقا فى شعره قوية إذ كان قبل الروى حرف إما واو أو ياء، وهذا ما يساعد على النغمة وموسيقا الوزن .

أما حظ النص من الموسيقا الداخلية فكثير متوافر تتمثل فى بعض المحسنات البديعية التى جاءت على لسان الشاعر دون تعمل أو قصد أو إكراه فى قوله :

لا يفرحـون إذا نـالت رماحـهم قومـا وليسـوا مجازيعـا إذا نيلـوا

فهى مقابلة جميلة واضحة .

كما تتمثل الموسيقا الخفيـة فـى إختيار العبارات الملائمة للمعنى، وفى تناسقها تناسقا تاما وفى تلاحمها وقوة سبكها، وفى استخدام الألفاظ ذات الايحاءات العاطفية مثل قوله "أوعدنى" التى توحى بالتهديد، وقوله "مأمول" التى توحى بتجدد الأمل، وقوله "يرعد" التى توحى بالرهبة والخوف، وقوله "ذى نقمات" التى توحى بالانتقام والقدرة، الى غير ذلك من الكلمات [1].

٩- وموضوع القصيدة كما هو واضح أنها وضعت خصيصا للاعتذار والاستعطاف، ومدح الرسول ﷺ ومدح الصحابة الأجلاء من المهاجرين وكشف دورهم فى الجهاد لنصرة دين الله الحنيف، ولكن الشاعر كعب بن زهير صاغها وأنشأها، وبدأها بالغزل والتشبيب بسعاد، وافتتاح القصيدة بالغزل التزمه الشعراء قبل كعب بن زهير، فما كان لكعب أن

---

(١) انظر: من النصوص الأدبية فى الجاهلية والإسلام ص١٤٠ .

يخرج عليه، ولقد افتتح الشعراء قصائدهم بالغزل وذلك لبعث جو نفسي للسامع، ولشد انتباهه، لأن الغزل قريب من النفوس والوجدان، وقد راعى كعب بن زهير فى هذه القصيدة أن يكون غزله متناسبا مع الغرض الذى سيقت من أجله القصيدة، فأشاع فيه جوا من الحزن والقلق والألم، وبذلك برع فى تلوين غزله بما يثير انتباه السامعين، ويوجه فى الوقت نفسه إلى فهم جديد لمهمة الغزل فى القصيدة العربية .

ثم كان مجال وصف الناقة التى حذفناه من النص، وذلك لصعوبة تناوله، وعدم حاجتنا إليه فى وقتنا الحاضر .

ثم أحسن الشاعر فى الانتقال إلى الغرض الرئيس وهو الاعتذار والاستعطاف، ويحتال بحيلة بارعة وهو أنه جمع فى الوشاة أمرين يؤلمانه يتصل أحدهما بالموضوع السابق، وهو سعايتهم بينه وبين سعاد، ويتصل الثانى بالموضوع الجديد وهو تخويفهم إياه من مصيره الرهيب وهو القتل لأن الرسول الكريم أهدر دمه .

ويصور هلعة وخوفه وهيبته من هذا الموقف الرهيب، ويستسلم لقضاء الله وقدره، ويعرض محنته أو قضيته وهو إهدار النبى الكريم دمه، ثم يلوح بمطلبه وهو العفو المأمول من رسول الله ﷺ .

وفى مديح النبى الكريم ابتعد عن مدائح السابقين فى الجاهلية، وانتقى من الأوصاف ما يناسب جلال الرسالة كما مر بنا، وفى مديح المهاجرين لم ينس جهادهم فى سبيل الله وتضحيتهم بكل غال وعزيز فى سبيل الدعوة ونصرة دين الله الحنيف .

١٠- ونأتى للحديث عن المآخذ والعيوب التى أخذها النقاد على الشاعر، مع ذكر حسنات الشاعر الكثيرة فى تلك القصيدة، أما المآخذ فإنها هنات هينات تقع لكثير من فحول الشعراء ولا تحط من أقدارهم، وهو إسرافه فى وصف الناقة التى بلغت عشرين بيتا، وتكراره لبعض أوصافها أكثر من مرة، ولا لوم على الشاعر فى هذا الجانب فقد كانت إطالة الوصف عادة مألوفة لشعراء زمانه، ثم يعاب على الشاعر كثرة محذوفاته التى ترتب عليها صعوبة استخلاص المعنى، وهذا واضح فى قوله :

لقد أقوم مقاما لو يقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

أما حسنات الشاعر فكثيرة وملامح قوته وفحولته وأصالة شاعريته بادية فى جوانب القصيدة، ويرجع ذلك إلى أن كعبا كان سر أبيه وعلى مذهبه فى الصنعة والتهذيب والتحبير والصقل، ومن الذين يتفرغون لقصائدهم ويتعهدونها بالرعاية والتهذيب والتنقيح قبل تداولها بين الناس، وبذلك يندر أن يتسرب إليها خلل أو وهن أو ضعف، ويبدو أن زهيرا كان يبالغ فى تنقيح قصائده قبل إعلانها حتى اشتهر بصاحب الحوليات، ويصنع القصيدة فى حول كامل، وَقد ورث كعب هذا التروى من أبيه وتعلمه على يديه، وتعلمه من رواية شعره، فجاء شعره كشعر أبيه، وفيه من سمات القوة والكمال والإحكام الفنى والفحولة، كما يتضح فى هذه القصيدة التى حققت غرض صاحبها وبلغته العفو المأمول من اشرف الخلق صلوات الله وسلامه عليه وبذل الأمان له، وبلغته أكثر مما تمناه الشاعر بأن خلع

عليه بردته الشريفة، وعرف كعب قيمة المكافأة ومغزاها، فاعتز بها ولم يستطع معاوية بن أبى سفيان أن يأخذها بعشرة آلاف، فلما مات أخذها من بنيه بعشرين ألفا[1]، وهى التى يلبسها الخلفاء الأمويون فى العيدين .

١١- تعد قصيدة كعب بن زهير من الشعر الاسلامى الذى تميز بالأداء الفنى والأسلوب الرصين المحكم الذى يملأ النفس ويأخذ بمجامع القلوب، وكان له قوة التعبير والتأثير. وقد حكم لهذه القصيدة أفصح العرب وأقدرهم على تذوق البيان والأدب، ألا وهو سيدنا محمد أشرف الخلائق على الإطلاق، وقد أيده بمعجزة البيان الخالدة: القرآن الكريم، بعد أن تشرد فى طول البلاد وعرضها، مطلول الدم، مسلوب اللب، يائس الأمل، فقد كان كعب بن زهير أحد الذين ناوءوا الدعوة الإسلامية وتصدوا لصاحبها بالهجاء والتكذيب والاختلاق، ثم عادوا فاستغفروا لذنوبهم، وطلب العفو من الرسول الكريم فعفا عنهم، وكانوا صادقين فى توبتهم، وكانوا حماة للدين الاسلامى الحنيف .

وقد بهرنا كعب ببيانه الخالد الذى أجمعت كل الأذواق فى كل العصور على استحسان قصيدة "بانت سعاد" ، فقد اشتد تعلق الشعراء بها على تعاقب الأجيال، فاكثروا من معارضتها والنسج على منوالها، حتى ذكروا أن الذين عارضوا هذه القصيدة بلغوا تسعمائة شاعر من شعراء العربية. فرضى الله تعالى عن قائلها، وسلام عليه فى الخالدين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

---

(١) انظر: مختارات من الأدب ص٢٦٧ وما بعدها .

تعليق عام على النص :

١- هل أعد كعب بن زهير هذه القصيدة العصماء، أم ارتجلها أمام النبى ﷺ ؟

لقد اختلف النقاد فى هذه القصيدة، فيرى بعض النقاد أن كعبا أعدها قبل أن يبدأ رحلته الى المدينة للقاء المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومنهم ابن هشام فى مقدمة شرحه لهذه القصيدة، ويرى الباجورى فى أول شرحه لهذه القصيدة أيضاً أن كعبا أنشأ قبل قدومه إلى المدينة أبياتا، فلما وصل إلى الرسول الكريم وحظى منه بالقبول والعفو والصفح، أنشأ هذه القصيدة على وجه مختلف، غير ما صنع تلك الابيات، ومعنى هذا أنه قام بارتجالها وإنشادها أمام حضرة الرسول ﷺ ، لأن المعروف أنه شرع فى إنشادها عقب إعلانه عن نفسه، فقد قال للنبى الكريم: لو جاء إليك كعب عائذا لائذاً أتقبل منه، قال له: أقبل، وحينئذ كشف اللثام عن وجهه وقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله أنا كعب. ثم أنشد القصيدة، ونال العفو وحظى منه بالقبول والصفح. وخلع عليه بردته الشريفة .

فأى الرأيين صحيح ؟ وأى الإتجاهين أقرب إلى الصواب ؟

والرأى الصواب أن قصيدة كعب قد أعدت إعدادا دقيقا، ويرجح رأى ابن هشام ومن لف لفه من النقاد والباحثين، وذلك لأمرين :

(أ) إن كعب بن زهير لم يكن من أهل البديهة والارتجال فى يوم من الأيام، بل أنه من شعراء التنقيح والتهذيب وإعمال النظر، قبل أن يخرج الشعر إلى الناس وقبل أن يذاع بينهم. فهو ابن زهير وتلميذه، وقد ورث

من أبيه تنقيح الشعر وتحبيره وتهذيبه، وقد كان من مفاخر كعب أنه من شعراء التهذيب والتثقيف .

(ب) إن القصيدة بما حوت من آثار الصنعة وما فيها من إحكام ودقة تفصيل لا يتأتى مع الارتجال والبديهة، ولقد لاحظنا أن كعبا ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر، دون أن يشعر السامع بفجوة في الطريق، ودون إخلال بالمعنى، ثم إحكامه في بناء الصور الخيالية ما يكفل لها الدقة المتناهية في التعبير عن غرضه والإيحاء بما في نفسه، وهذا لا يتأتى إلا لمن أعمل فكره ونقح معانيه وهذب صياغته وتمهل في صنعته .

وأما الأبيات التي وصف بها رهبة المثول بين يدي الرسول الكريم، لا يعدو الأمر أن يكون موقفا توقعه كعب وهو يتدبر عواقب حاله، فتخيل ما عسى أن يكون في هذا الموقف من رهبة وخوف، فوصفها في هذه الأبيات، ليكون ذلك باعثا على الشفقة ومستحقا للعفو والصفح من رسول الله ﷺ .

٢- من دراستنا السابقة لقصيدة كعب بن زهير وتحليلها، تتبين منهجه في الاعتذار، وأنه يقوم على الخطوات التالية :

أولاً: وصف حاله وما قاساه بعد ما بلغه غضب الرسول الكريم عليه، وإهداره لدمه .

ثانياً: محاولة استرضاء النبي ﷺ، وإخلاء قلبه ليتسع لسماع عذره وقبوله.

ثالثاً: التبرؤ من التهمة المنسوبة إليه، وادعاء أنها سعاية ووشاية واختلاق .

رابعاً: وصف ما يعانى من فزع ورعب وخوف أثناء مثوله فى حضرة الرسول الكريم .

خامساً: مدح النبى الكريم بما يناسب جلال النبوة والرسالة، ومدح أصحابه المهاجرين بالجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى[1] .

٣- أما عن منزلة قصيدة (بانت سعاد) فهى قصيدة من أشهر القصائد الإسلامية، وتعد من عيون الشعر العربى، وهى من (المشوبات) وقد سميت بذلك لأنها لمخضرمين شابهم الكفر والاسلام،[2] وتبلغ هذه القصيدة سبعة وخمسين بيتا، وقد طبعت طبعات عدة، وعكف على شرحها علماء كثيرون كابن هشان وابن دريد والتبريزى والباجورى وغيرهم، وقد شرحها المستشرق الهولندى (ليثه) فى ليدن، والمستشرق الألمانى (فريتاخ) بعد أن ترجماها إلى (اللاتينية) وطبعها المستشرق الإيطالى (جويدى) مع شرح ابن هشام، وطبعها المستشرق (لولدكة) الألمانى مع شروح عليها، وطبعها المشترق الفرنسى (رو) مع منتخبات من شرح الباجورى، وطبعها المستشرق (كرنكو) مع شرح التبريزى وسواهم .

وقد ترجمت قصيدة (بانت سعاد) إلى لغات كثيرة، ولاقت من اهتمام العلماء فى الشرق والغرب، ما لم تلاقه قصيدة أخرى نظرا لمكانة الممدوح والمادح، وقد عارضها البوصيرى بقصيدة "ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد" ومطلعها :

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٢٥٥ وما بعدها .

(٢) محاضرات فى الأدب للدكتور/ عبد الحميد محمود المسلوت ص١٩٨ ط دار الطباعة المحمدية القاهرة .

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول[1]

كما عارضها كما قلنا من قبل حوالى تسعمائة شاعر، وهذا يدل على مكانة قائلها ومنزلة الممدوح ﷺ.

هذا وقد نالت هذه القصيدة شهرة بلغت السماكين، لأنها ألقيت بحضرة النبى ﷺ، وأعجب بها إعجابا بالغا، وأدرك الرسول الكريم بذوقه العربى الأصيل جمال الغاية من القصيدة، وأن هدفها نبيل ومقصدها كريم، عندما أشار الرسول الكريم فى أثناء إلقاء القصيدة إلى جلسائه من الصحابة الأجلاء: (أن اسمعوا) وذلك غنى عن التعليق .

ويبدو من قصة كعب بن زهير مع الرسول الكريم مدى تكريم النبى لكعب وإعجابه بشعره، وبذلك رسم الرسول الكريم للشعر منهجه الذى ينبغى أن يسير عليه فى ضوء تلك الرسالة الجديدة .[2]

﴿ والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أ.د / على محمد طلب

أستاذ الأدب والنقد

ووكيل كلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) انظر: تراثنا الأدبى للدكتورين/إبراهيم أبى الخشب ومحمد عبد المنعم خفاجى ص١٠٥.

(٢) انظر: مذاهب النقد وقضاياه لأستاذنا الدكتور/ عبدالرحمن عثمان ص٢٣٥ ط الإعلانات الشرقية القاهرة ١٩٧٥ م .